محمد شكري

تم تحميل هذا الكتاب من
سور الأزبكية
www.ithar.com

# الخبز الحافي

سيرة ذاتيّة روائيّة

١٩٣٥ ـ ١٩٥٦

الراعي الرسمي شبكة صخب أنثى الأدبية
www.xx5xx.com

# ٤

وصلنا إلى وهران ليلاً. في حي «الطحطاحة» دَلَّنا رجل يتكلم الريفية على سكنَى الأسرة التي يفتش عنها أبي.

إستقبلتنا كلاب شرسة خرجت من الكهوف الآهلة. كاد يعضني كلب ارتَمى على ساقَيَّ. أسيرُ أمام أبي. يهش على الكلاب بالحجارة. حين تقترب منا يستعمل العصا التي التَقَطَها. يسب الكلاب ويسبني.

- إمشِ أمامي يا هذا الخواف. إمشِ لتأكل أمك القحبة.

تعثرتُ وسقطتُ. هوى عليّ بالعصا. عويت. شتمته في خيالي. يدفعني برأس العصا إلى الأمام. إلتقطت عُصَيَّةً لأطرد بها الكلاب. أعفس على الحجارة الناتئة ونبات القراص. يضربني ويلعنني جهراً، أضربه وألعنه في خيالي. لولا الخيال لانفجرتُ.

خرج رجل من كهف. تناديا قبل أن يتعانقا: السي المصطفى - السي حدو. كانت مغارة كافية ليعيش فيها شخصان فقيران. امرأته وجدناها تُصَلِّي. ملابس الرجل رثة، قاتمة، وجهه غير حليق، وثياب المرأة بيضاء، جدُّ نظيفة. المغارة تُضَاءُ بفانوسين.

سألتني عن أمي وإخوتي الذين ولدوا في المنفَى. أجبتها تارة صادقاً وتارة كاذباً. من يستطيع أن يتكلم صادقاً أمام أبي؟ سمعت الرجل

يسأل عن أحوال المغرب وحياة الريفيين الذين هاجروا إلى الشمال والجنوب. قال له أبي:

ـ حياتنا هناك في المدن الشمالية بائسة. العمل قاس في الأوراش والأجور هزيلة. التقحبن في كل مكان، لكن الريفيين لا يسمحون لبناتهم أن يدخلن البورديل.

ـ هنا أيضاً في وهران الحياة ليست سهلة، لكننا ما دمنا نستطيع الحصول على الخبز والبصل فإن كرامتنا ستظل مصونة.

تألمت المرأة لموت أخي عبد القادر الذي تعرفه في الريف. كنت أود لو أقول لها إن أبي هو الذي قتله. قالت إنها تركتني في الخامسة أو السادسة من عمري في الريف.

ـ ها هي الآن قد مضت حوالي ثماني أو تسع سنوات.

هكذا قالت:

في اليوم التالي عثرنا على خالي «إدريس» وجدتي «رقية» في حي «الدوار الجديد» وعلى خالتي في حيّ سيريمين متزوجة بمراكشي. قالت لي جدتي:

ـ إنك كبرت. قريباً ستصير رجلاً وتتزوج مثل خالك إدريس. ستشتغل وتعينني على العيش. أليس كذلك؟

كانت هزيلة ومريضة.

تركني أبي مع خالتي وذهب يبحث عن إخوته في مدن أخرى بعيدة عن وهران. بعد حوالي ثلاثة أشهر وصلت رسالة تقول لنا إن أبي قد عاد إلى تطوان وإنه من الأحسن أن أبقى أنا في وهران.



عثر لي زوج خالتي على عمل في مزرعة الفرنسية التي يعمل في اصطبلها. كنا نعمل في حقل الدوالي من الخامسة صباحاً إلى السادسة مساء بسبب الساعات الإضافية. أحياناً نمدد القيلولة إلى ساعتين أو أكثر إذا لم يجئ مراقب العمل. أقود البغلين بالزمام في خط المحراث. هذا هو عملي. لوني يسمرّ، راحتاي تكتبان، جسمي ينحل ويشتد. الشيخ الحراث، الذي أعمل تحت أمرته، رحيم بي على مزاجه: يقسو علي ويرفق بي حسب الظروف. أدركت أن شتمه إياي لم يكن إلاّ وسيلة لصرف تعب عمله الشاق. ما يؤلمني منه هو أنه يعايرني بأني قبائلي: «بلادكم لم تنجب سوَى رجلٍ واحد هو عبد الكريم الخطابي».

لم أكن أعرف بعد من هو عبد الكريم الخطابي.

عملت حوالي ستة أشهر في الدوالي. في أيام الآحاد أصطاد العصافير بالأفخاخ صباحاً وفي المساء أذهب إلى المدينة، مرة حاولت أن أطلع إلى شجرة ضخمة. تسلقت مراراً جذعها الأملس دون أن أستطيع الوصول إلى رأسها. ساقها طويلة وملساء. غضبت. من تكون هذه الشجرة؟ ذهبت إلى مرأب المزرعة وسرقت صفيحة نفط. أفرغت الصفيحة كلها على جذعها وأشعلت النار. منظر اللهيب بدا لي رائعاً والجذع الأملس يخشوسن. تخيلت أن النار ستمتد وتمتد حتى تحترق كل الأشجار. تذكرت يوم أشعلت النار في سياج غرسة عين خباز. في ذلك اليوم لم أستطع أن أتفرج على جمال النار. الشجرة تحترق ولا أحد يأتي. مساكن المزرعة بعيدة. ها أنت الآن خشنة. أستطيع الآن أن أصعد إليك بسهولة. فكرت في الشجرة لو أنها امرأة. تذكرت يوم أحرقت ثوب فاطمة بنار خيالي. بحثت عن شجرة



www.ithar.com

أخرى صغيرة. ملساء وجميلة. جذعها على قياس ذراعي حين أعانقها. رسمت على جذعها تصميم امرأة وشرعت في الخلق: سيكون لك ما للمرأة. خلال أسبوع حفرت في جذعها حُفْرَتَيّ النهدين، والفم وحفرة ما بين الفخذين.

الشجرة ـ المرأة.

أضع في الحفرتين برتقالتين مثقوبتين للمص أو تفاحتين للعض وإحداهما في الفم. في حفرة ما بين الفخذين أضع خرقة فيها زَبَدٌ أو زيت. صرت أنقل إلى الشجرة ـ المرأة صور الجميلات.

قال لي زوج خالتي:

ـ غداً لن تذهب إلى الحقل. إن زوجة مراقب المزرعة، المسيو سيجوندي، تريد أن تراك. من المحتمل أن تعمل عندها في منزلها إذا أعجبتها.

فرحت، لكن هذا الشرط: «إذا أعجبتها...» آلمني.

إستقبلتني زوجة مراقب المزرعة بلطف. شابة، جميلة، متوسطة القامة، ذات سمرة خفيفة. ذكرتني رشاقة جسمها بقوام أسية. خجلت أمامها ووقحت في خيالي. موضوع جديد لأحلامي. كلمتني بالإسبانية. أجهدتُ نفسي باضطراب كي أتذكر الكلمات الإسبانية القليلة التي بدأت أنساها. أعطتني عطلة ثلاثة أيام وبعض النقود قبل أن أبدأ عملي معها. قضيتها متسكعاً في المدينة بين السينما والسيرك والمقاهي في حي المدينة الجديدة. كنت أحمل معي من المدينة زجاجة خمر أشربها ليلاً في الكوخ المجاور لمنزل خالتي في المزرعة. يشاركني، في وحدتي الليلية، كلب خالتي الضخم «تيجري» (Tigre).



علمتني مخدومتي غسل الصحون، قَلْيَ البيض والسمك والمقليات الأخرى. ذات مرة طبخت لها طبخة مغربية. إستلذت طبخة الطاجين. صارت تقول لي مرة في الأسبوع:

ـ اليوم سنأكل طاجينكم المغربي. عليك أنت أن تطبخه وحدْك.

شعرتني سعيداً معها. صارت موضوع رغبتي الجنسية. لم أعد أفكر في الشجرة ـ المرأة. الحنين يحزنني عندما أفكر في بغايا بورديل تطوان. على مهل أو بسرعة. بتقبيل الشفتين وضم النهدين أو مجرد أن يدخل الشيء في الشيء. لا بدّ لي من رفيق هنا لكي أتشجع. لم أعرف كيف أتردد على بيوت الدعارة التي سمعت عنها، لكن الرفاق عبوسون في وهران. لا يكادون يبتسمون.

كنت أرى، أحياناً، مسيو سيجوندي الإيطالي يقبل زوجته الفاتنة وينزه يديه على جسمها على مرأى مني. في غالب الأحيان أحمل لهما الإفطار إلى السرير. زوجها عار حتّى النطاق وهي تَشِفُّ غلالتها عن حلمتيها. لأول مرة أمرتني أن أغسل لها سليبات زوجها. قلت لها في البداية: نعم، على مضض لكن عندما وضعت السليبات في الماء قلت لنفسي: الرجل لا ينبغي له أن يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر. قلت لمخدومتي مونيك:

ـ لن أغسل سليبات مسيو سيجوندي.

ـ لماذا لا؟

ـ إنها سليبات مسيو سيجوندي.

ـ وماذا في ذلك؟

قلت لها خافضاً رأسي:



www.ithar.com

ـ الرجل لا يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر.

ضحكت ثم قالت:

ـ وثياب المرأة؟

قلت بحيرة:

ـ ثياب المرأة... شيء.... شيء آخر. يمكن للرجل أن يغسل ثيابها إذا هي لم تستطع أن تغسلها بنفسها.

قالت باسمة:

ـ أنت عجيب. (أضافت): أنت رائع. قل لي، أهذه عادة عندكم في المغرب؟

لم أكن أعرف بعد أهي حقيقة عادتنا أم أنها صادرة عن تفكيري الخاص. لم يسبق لي أن مررت بتجربة تماثلها. إنها مشكلة مع هذه المرأة. قلت لها:

ـ نعم، عيب أن يغسل الرجل ثياب رجل مثله.

ـ هذا غريب عندكم.

ضحكا كثيراً هي وزوجها عن الحادث. بعد أيام أمرني زوجها بالقوة أن أغسل له سليباته. رفضتُ. هو يصر وأنا أرفض. أفهمته أن هذا العمل تقوم به المرأة الوهرانية التي تنظف لهما المنزل. عبثاً رجته زوجته أن يكف عن عناده. تكلما بصخب وغضب بالفرنسية التي لم أكن أعرف منها سوى كلمات قليلة. قال لي بحدة:

ـ لماذا ترفض أن تغسل لي سليباتي؟

ـ لأنه هكذا.



ـ أتعتقد أن ثيابك أنظف منها؟

لم أجبه. صاح بغضب:

ـ إذهب إذن إلى منزلكم ولا تعد أبداً.

قلت لنفسي: طز في كل أوامر المخدومين. لم يبق لي سوى أن أغسل خراء المسيو سيجوندي. سأعود إلى تطوان. حياتي هناك وليست هنا.

بعد ثلاثة أيام أعادوني إلى العمل. جاء والدا مخدومتي الجميلة من سيدي بلعباس. حدثني أبوها عن أصله الإسباني. تأسف حين أدرك أني لا أعرف القراءة والكتابة بأية لغة. سألني:

ـ ألا يعلمون عندكم العربية والإسبانية في تطوان؟

ـ نعم، سمعت انهم يعلمون العربية والاسبانية.

ـ لماذا إذن لم تذهب إلى المدرسة؟

ـ لأن أبي لم يفكر أن يدخلني إلى المدرسة.

ـ أهو لم يكن يريد أم أنت الذي لم تكن تريد أن تذهب إلى المدرسة؟

ـ لا أدري. أنا لم أهرب قط من المدرسة. إننا جد فقراء، والدراسة تكلف هناك بعض المال.

تأمل جبهتي للحظة وسألني:

ـ بماذا حدثت لك هذه الندبة؟

ـ داستني دراجة في سباق للدراجات عندما كنت أعبر إلى الرصيف الآخر.



www.ithar.com

أمسيات وهران، في الصيف، طويلة وجميلة. الشيوخ يلعبون «الداما»، الشبان يتبارزون ابتهاجاً «بالمطرك»[1]، النساء يجلسن على عتبات منازلهن يتحدثن، الأطفال يتوزعون هنا وهناك يعلبون ويخترعون أشكالاً من التراب والخشب والقصب.

زرت سيدي بلعباس مع مخدوميَّ. رحب بي كثيراً والدا مخدومتي وخالتها. والدها أكثر عطفاً عليّ منهم جميعاً. تجولت في المدينة. بدت لي موحشة. أعجبني شارعها الرئيسي والكاتدرائية. سمعت في الشوارع إسبانيين يتحدثون بلغتهم[2]. رأيت سيركا. عرضه يبدأ في الخامسة. لكن مخدوميَّ أخبراني أننا سنعود إلى وهران في السادسة. دخت بكآبة. شربت كأسيَ نبيذ في حانة إسباني. زرت معرض الحيوانات الملحق بالسيرك. توقفت عند قفص قرد. الأطفال يلاعبونه بشراسة. لم أعرف كيف حدث ذلك: شعرت بأظافر القرد تشطب وجهي. ضحك الأطفال وتأسفوا. أبعدهم الحارس عن القفص. القرد يقفز في قفصه هائجاً، مكشراً عن أسنانه. منظر إنساني ألم وجهي: شاب وشابة، من لاعبي السيرك، يتعانقان بحب وراء الخيمة الكبيرة بلباسهما اللامع. فكرت: ما أجمل حياة السيرك! تذكرت بستان عين خباز، أسية تتعرى، انزلاقي فوق جسم فاطمة العارية وبغايا «السانية». حرارة أفخاذ النساء. ذلك ما كنت أحن إليه.

صبغوا لي وجهي في منزل خالة مخدومتي باليود. تركتني خالة مخدومتي أتنزه في حديقتها. الحديقة معنكبة. تحت قبة الحديقة وجدت

(١) المطرك عصا يتبارز بها الجزائريون جدياً وابتهاجاً، بعضهم قد يتفنن في صنعها، خاصة مقابضها.

(٢) فيما بعد عرفت أنهم من مناهضي حكم فرانكو.



مقعدين خشبيين مهترئين، مغبرين. ملأني المشهد بحزن. الحديقة موحشة. أشياء مكسرة وأخرى ممزقة. العصافير على الأشجار. تلوث رأسي وكتفاي بذرقها.

في اليوم التالي اسودت خدوشي. يوم الأحد لم يأخذني مخدوماي معهما في سيارتهما. بقيت وحيداً في المنزل. فتحت الراديو. بعد لحظة أقفلته وشغلت الفونوغراف. كلمات الأسطوانات لم أكن أفهمها. موسيقاها هي التي تطوف بي عوالم فيروزية اللون. مخدومتي تعرف حبي لمقوطعة «الدانوب الأزرق». حين يكون مزاجها رائقاً تقول لي باسمة: «سأضع لك أسطوانتك. «ستراوس» موسيقي عظيم».

أخذت اضمامة صورها. تأملت صور عائلتها بسرعة. قلت لبعض صورها وهي طفلة: أكبري! أكبري بسرعة! بدأت تكبر في كل صفحة من الألبوم أقلبها. توقفت عند صورها الشاطئية خارجة من الماء أو مستلقية على الرمال مع زوجها أو وحدها. ثلاث صور تبدو فيها عارية تماماً: الأولى واقفة. منحنية قليلاً إلى الأمام، واضعة يداً على يد أسفل بطنها، الثانية على ركبتيها جالسة فوق ديوان من الفراء، صدرها بارز، مستندة إلى الوراء بيديها، استشارتني في الخيال:

- أهو جميل هذا الوضع؟

- رائع.

في الصورة الثالثة مستلقية على الديوان، رأسها يتوسد يديها، ساقها اليمنى مقوسة قليلاً. قال لي وضعها هذا:

- تعال!

قالت شهوتي لصوتها:



www.ithar.com

ـ أنت لي.

من صورها هكذا؟ زوجها؟ لو كانت عندي آلة تصوير في ذلك الصباح لصورت أسية آتية نحو الصهريج، عارية تستحم، حائرة تفتش عن منامتها، خائفة هاربة.

نزلت إلى قبو المؤن لأحتفل بالعرس الخيالي. فتحت صنبور البرميل وملأت قدحاً بنبيذ أعرف طعمه الجيد. وضعت زيتوناً أسود والجبن الدنماركي في صحن. أشرب وآكل على مهل. إحدى صور مونيك الجميلة أمامي تغمرني. نفخت فيها الحياة. تمططت مونيك. نفخت الصورة في جسدي رعشة الحلم اللذيذ. أهي الصورة في خيالي أم خيالي في الصورة؟ جسدي يتدغدغ. يعنف قليلاً. أخرجت ثعباني وبدأت أدلكه وألاطفه. ينتفخ، يَحْمَرُّ، يعرق ويلهث. يتعسل فمي، تتراءى الألوان متموجة. كل الألوان لا لون لها ولها كل الألوان.

أحسست بخطوات. زررت فتحه سروالي. قالت:

ـ لكن ماذا تفعل هناك؟

ـ . . .

ـ وهذا الألبوم، ماذا تفعل به هنا؟

ـ . . .

أخذتْ ألبومها وصعدتُ وراءها.

ـ من سمح لك أن تتفرج على ألبومي؟

صفعتني. أكملتْ صفعتها لذتي.

ـ شربت، أليس كذلك؟ لا أسمح لك أبداً أن تفعل هذا هنا.

سحتُ في الحقول غاضباً على نفسي وتيجري يتبعني. تذكرت



الصابونة المعطرة والكوب في القبو. ستقول مونيك الجميلة: يستعمل أيضاً صابونتي. آلمني خجلي. هي تعرف الآن أني أضاجعها في خيالي.

عند عودتي أبصرت جمعاً من عمال القرية وأسرهم يتجمعون حول عدد كبير من رؤوس الغنم التي داسها القطار. بعضها ذبحوها وبعضها نفقت قبل أن يذبحوها.

في الليل بدأ عواء الثعالب قرب منزلنا. فكرت: تفترس الآن الاحشاء. لو كنت كبشاً بين ذلك القطيع لكانت الثعالب تمزق أحشائي الآن بأنيابها.

دخل تيجري ينزف دماً. يدور حول نفسه، يخرج ويدخل، يتأوه، يحاول أن يلعق جروح عنقه، أيقظت خالتي في منزلها. وضعت له في جروحه الرماد وضمدته. قالت:

ـ جروحه عميقة. لا شك أن خمسة أو ستة من الثعالب قد تعاركت معه.

رَبَطْتُهُ في كوخي من وسطه خوفاً من أن يخرج. رأيته يموت شيئاً فشيئاً. مات قبل أن أنام.

في الصباح حملت جثته بعيداً في عربة يد ودفنته تحت شجرة زيتون. تلك أول مرة أدفن فيها جثة. استولى عليّ شعور غريب: لماذا يسوق القدر هذا الكلب إلى الموت بهذا الشكل الفظيع؟ القطيع أيضاً داسه القطار. الراعي غبي. تيجري غبي. تيجري لا يعرف معنى الموت. لا شك أن العالم مليء بالغباء. أنا أيضاً غبي؟

لم أرد أن أعود عند مخدومتي. الخجل ما زال يؤلمني. قالت لي خالتي:



www.ithar.com

ـ إذا لم تكن تريد أن تذهب عند السيدة سيجوندي فأنت تعرف ما ينفعك. لا بد أن تشغل نفسك بعمل ما.

تذكرت ما كان قد قاله لي أبي في تطوان: «أن الأكل والنوم في الدار يكلفان مالاً».

جاءت مونيك عند خالتي. أخذت أترجم ما تقوله الواحدة للأخرى. خالتي لا تعرف سوى الريفية والدارجة الوهرانية. مونيك تكلمني بالاسبانية. مشرقة هذه المخدومة. بدت لي ألطف في هذا اليوم. مزاج المرأة صعب الفهم؛ حين يعتقد الواحد في امرأة أنها ستسبب له مصيبة إذا بها تنقذه. حين يعتقد أنها ستنقذه ربما تقوده إلى مصيبة: الأنقاذ والهلاك متوقف على مزاجها.

مونيك إذن لم تكره فعلي، لكن لا بد من لوم. قالت لي:

ـ لقد اعتقدت أنك مريض. لماذا لم تجيء اليوم إلى العمل؟

ـ تيجري قتلته الثعالب في الليل.

ـ أخبرني زوج خالتك. مسكين. لقد كان كلباً قوياً وجميلاً. أين دفنته؟

ـ تحت شجرة زيتون.

ـ حسناً فعلت. سيعثر زوج خالتك على كلب آخر.

تألمت مع نفسي: كلب ذهب، كلب سيأتي. يا ألهي! كن أيضاً رحيماً بالكلاب.

نهضت وأمسكتني من يدي. يدها دافئة. رعشات لذيذة تغزو جسدي.



ـ تعال معي إلى المنزل.

أنها إذن لم تخبر زوجها. أني أكرهه وأحبها: مثل أبي وأمي. بدأت أحلم كثيراً. أحلم أني أطير أو أعيش في كهف مفروش بالحرير وألوان لامعة تزين الجدران والبسط والبخور والعطور. أشير بيدي فيأتيني طبق مليء بما أشتهي. أصفق بيدي فتأتي فتاة رائعة لم تمسها بعد يَدُ إنْسَانٍ. ترقص لي عارية وسط ضباب من البخور وضياء الشموع.

ذات صباح رأيتها بعد أن خرج زوجها تأخذ علبة القطن وسلياً وتدخل الحمام. رأيت مراراً قطناً ملوثاً بدم قاتم في القمامة. من أين يجيء هذا الدم؟ وضعت عيني على ثقب الباب. تخلع سليبها. تجلس على المغسلة وتفتح الماء. أهي تبول؟ كم هو جميل أسفلها. مونيك تبول، مونيك تخرأ. ليتها لا تبول ولا تخرأ. تغسل شيئها وتحك عانتها. تضع منشفة بيضاء في جرحها. هكذا رأيت المرأة التي نعست معها في بورديل تطوان تفعل عندما انسحبت من فوقها. تضع القطعة القطنية في جرحها. تلبس السليب النظيف. أهن كلهن ينزفن هكذا؟ مونيك الجميلة تنزف دماً! شيء مقرف إذ كن ينزفن دائماً.

صحبت معي إلى الحقل غلام أحد الجيران. يصغرني. سنصطاد عصافير كثيرة. هكذا قلت له. كنت أحمل مصائد. غلام وسيم، رقيق، يلبس الشورط، بشرته جميلة، وجنتاه موردتان، شفتاه قرمزيتان، صغيرتان. منذ أيام وهو يسبب لي دوخة لذيذة كلما رأيته. نصبنا المصائد وجلسنا تحت شجرة زيتون. أكلنا لحماً مقلياً وبيضاً مسلوقاً. دخن وشرب معي. قال:

ـ أنني أدخن وأشرب لأول مرة.

قلت له كما قيل لي في تطوان:



www.ithar.com

ـ لن تَسعل أو تمتعض في المرة المقبلة من الشراب والدخان. هكذا حدث لي أنا في المرة الأولَى عندما كنت في تطوان. (أضفت): هل دُخْتَ؟

ـ قليلاً.

اقترحت عليه أن ندخل وسط سنابل القمح عسانا نعثر على بيض الطيور. كنا نتنزه ورغبتي فيه ترعش جسدي. شفتاه تلمعان. جلسنا. استلقيت على ظهري. استلقَى إلى جانبي. تطوان! تذكرت أغنية تبدأ هكذا:

«عشقت طفلة أندلسية، صغيرة، شابة، خمورية...»

أنه طفل؟ شيئي ينتصب. أنه طفلي. عيناي تدمعان باللذة. لاطفت يده، سحبها وجلس ناظراً إليّ مستغرباً. عيناي دامعتان باللذة. خاف.

ـ ماذا تريد أن تفعل لي؟

ـ لا تخف. أنت جميل. تمدد إلى جانبي.

داعبته بيدي. كدت أبكي من اللذة. قال:

ـ أنا لا أحب مثل هذه المداعبات.

قالت له عيناي:

ـ أرجوك. أني أحب أن ألاَطِفَكَ.

همَّ أن يقف. أمسكته من يده بعنف. جسمي يرعش. الجنون في رأسي. سحب يده بقوة ووقف. أراد أن يهرب. عانقت ساقيه وجذبته بقوة وجنون تحتي.



صار لي. طفلي!

ـ سأشكوك لأمي. سأشكوك لأبي وأمي. سأشكوك...

أمهات العالم. آباء العالم. تارة يعض يدي وتارة يعض التراب. جسدان في جسد. يخمشني. أعضه في رقبته. يكف عن الصراخ والاهتزاز. يستقر دفئي في دفئه. ألاَمِسُ عضوه بيدي. ينتصب شيئه في يدي. يتلذذ. أبوس رقبته، شعره، وجهه، فمه...

شكا لأبويه. اللعين! في تلك الليلة أنبتني خالتي. خجلت. أنكرتُ. حلفتُ لها أني بريء. كرهت ملذات جسدي. بكيتُ. رأيت خالتي في اليوم التالي تبوس رأس أم الغلام طالبة عفوها. جسدي. تفو!

قالت لي خالتي:

ـ لا بد أنك تعذب أمك كثيراً في تطوان. كن عاقلاً.

قلت لها في خيالي:

ـ كيف ينبغي لي أن أكون عاقلاً يا خالتي؟ كيف؟

ـ لا تفعل كل ما هو قبيح.

ـ لكني أحب ما هو قبيح لذيذ.

ـ لا أفهمك.

ـ في تطوان كانت لي أفخاذ بغايا بورديل «السانية». وهنا هل أشتهي فخذيك؟ فخذا مونيك لزوجها. فخذاك لزوجك. وأنا؟

مخدومتي تلاحظ فتوري في العمل وشرودي. قالت:

ـ لا شك أنك تشتاق إلى رؤية أهلك في تطوان.



www.ithar.com

ـ لا أدري.

ـ أكيد أنك مشتاق لأهلك.

قلت لها في خيالي:

ـ أعطني فخذيك أُعْطِكِ أَهْلي.

جنون. الشوق إلى التطوان جنون. الخمر والنساء والكيف. جنون جميل. تطوان مجنونة. ليس هنا جنوني. في أي مكان في العالم سأبحث عن جنوني.

قالت:

ـ اسمع، سنعطيك اجازة شهر كامل لتزور أسرتك ثم تعود إلينا.

وافقتها. كنت قد سرقت لها إحدى صورها ومنديلاً صغيراً عطرتهُ بأزكى ما عندها من عطور.

لم أكن أرى جدتي وخالي إلاَّ عندما كانا يزوران خالتي في أيام العطل. أحياناً يأتي هو أو هي فلا أراه أو أراها. لا عاطفة نحوهما. لا محبة، لا كراهية. هو وهي. هذا كل شيء.

لم تبد لي وهران عزيزة إلاَّ يوم رحيلي. أَلِلأَنني أمل مما أحبه؟ سمعت أحدهم يقول:

«الداخل إلى وهران زربان (مستعجل) والخارج منها هربان (هارب).

في طريق عودتي إلى تطوان فكرت في أيهما أفضل: وهران منفَى جميل وتطوان سجن جميل. سجن الوطن ولا حرية المنفَى.



قضيت يومين في مليلية ويوماً في الناظور. تحدثت عن وهران مع ناس لا أعرفهم. قال لي أحدهم: «الناس يهاجرون إلى وهران وأنت تهجرها!».



www.ithar.com

## ٥

عندما وصلت تطوان تيقنت أني لن أعود إلى وهران. سبقتني رسالة من خالتي إلى أمي تقول لها فيها بأني أسبب لها مصائب لا تقوى على تحملها، وأنه من الخير أن أبقَى في تطوان. عندما أخبرتني أمي قلت لها:

ـ ومن قال بأني أريد العودة إلى وهران؟

وجدت أمي قد ولدت طفلة ماتت في الرضاع. لكن بطنها بدأ ينتفخ من جديد، أبي ما زال يقضي معظم وقته في ساحة الفدان مستلذاً بطالته. ينام كثيراً. يأكل مثل خنزير. يتناول النشوق ويعود أحياناً ثملاً إلى المنزل. ما زال يسب الناس دائماً والله أحياناً. لا يحب أحداً في هذا العالم. إذا اقتربت منه قطة يمسكها من ذيلها ويخبطها مع الحائط. من الغريب أنه يعامل الدواجن (مثل الدجاج والأرانب والمواشي) بلطف قبل أن يذبحها. ما أن يقبض على دجاجة أو أرنب للذبح حتّى يخيل إليّ أن الحيوان يموت بين يديه القويتين قبل أن يُنْحَرَ.

اختي ارحيمو كبرت، أمي صارت تعتمد عليها كثيراً في الدكان. صالحني رفاق حي الطرانكات مع كوميرو، لكنني ظللت أحذر من انتقامه. رأيت ندباً يقسم خده الأيمن. كثير من الرفاق صاروا يهابونني. كانت لي طريقة خاصة في وضع شفرة حلاقة أو شفرتين

ملصقتين في فمي وأتكلم دون أن أجرح فمي. مثل هذه اللعبة تؤكد لهم مهارتي في الضرب بالشفرة.

في ماخور السانية ذهبت نساء وجاءت أخريات. فتيات قبيلة بني عروس مشهورات بجمالهن في الماخور وكذلك الغلمان الذين يرقصون في المقاهي الشعبية رقصات أنثوية لابسين القفطان والزكدون والحزام الجبلي الشبيه بعجلة سيارة. أيضاً ذهب حماة موشومون وجاء آخرون موشومون مثلهم.

أستمتع بالنوم في الدروب صحبة المتشردين أو وحدي. ذات صباح باكر أيقظتني في درب فتاة حنونة عرجاء وجميلة. سألتني:

ـ ألست أنت ولد السيدة ميمونة؟

ـ نعم.

ـ أنا أعرف أمك. لماذا لا تنام في داركم؟

ـ أبي طردني.

جاءتني برغيف مزبد وكوب قهوة بالحليب. خجلت أن أرفض لها كرمها معي، لكني صرت أحتاط كي أفيق باكراً وأنصرف من ذلك الدرب المنعزل والدافىء. لم يعد يروق لي عطف الناس عليَّ: لا الرجال ولا النساء.

في فصل الشتاء تعودت أن أنام في ركن مخبزة. أكور نفسي كالقنفذ. ألصق ظهري إلى جدار الفرن الساخن. حين أفيق في الليل، لأغير وضعي أو لأبول، أجد فوقي قططاً تنام. أحياناً أستعذب شخيرها الخفيف الذي يشبه هدير معمل بعيد. أستلذ أيضاً



كل صوت حزين يصلني من بعيد أو همساً عن قرب. بعض الأغاني التي اسمعها من المقاهي البعيدة كانت حزينة ورائعة: اسمهان، أم كلثوم، عبد الوهاب وفريد الأطرش. هؤلاء كانوا المفضلين عندي في العالم العربي.

أيقظني ذات صباح رجل سائلاً إياي:

ـ ألست أنت ابن السيد حدو؟

ـ كلا. لست أنا.

أعاد السؤال بإلحاح وحيرة:

ـ ألست أنت ابنه محمد الذي عاد من وهران؟

ـ قلت لك لا. ولا أعرف شخصاً بهذا الإسم.

ـ ما اسمك إذن؟

ـ محمد.

ـ لكن أباك هو السيد حدو بن علال وأمك هي السيدة ميمونة.

ـ قلت لك بأني لا أعرف سوى نفسي.

ـ من هو أبوك إذن؟

ـ مات.

ـ مات؟

ـ نعم، مات من زمان.

ـ ماذا كان اسمه؟



www.ithar.com

ـ لا أدري. كنت أعرف اسمه، لكني نسيته. كنت في بطن أمي عندما مات.

تأملني لحظة وقال:

ـ ما شاء الله! ما شاء الله!

مدّ لي بسيطتين قائلاً:

ـ هاك، اِشْرِ لنفسك إِفْطَاراً. لا بد أنك جائع.

قلت له بصوت جاف:

ـ لست في حاجة إلى شيء. عندي نقود.

ـ عندك نقود وتنام هكذا هنا مثل قط. هل أنت أحمق؟

قلت له غاضباً:

ـ القط العجوز هو أنت والأحمق الحقيقي هو أنت.

نظرت إليه بجنون. صرخت في وجهه وأنا أنهض: عاووو! عاو عاو!

انصرفت وتركته خلفي يردد: «باسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من أولاد هذا الزمان».

وضعت أمي طفلة سموها الزهرة مثل الطفلة التي ماتت قبلها. هذه أيضاً عضها في ليلة جرذ في يدها فماتت.

كثيراً ما يباغتني أبي في الشارع من الخلف ويقبض عليّ من ياقة قميصي أو يلوي ذراعي إلى ظهري بيد وبالبيد الأخرى ينهال عليّ ضرباً حتّى يسيل دمي. عندئذ أعرف أن حزامه العسكري السميك



ينتظرني في المنزل. حين تتعب يداه وقدماه من الضرب يعضني في كتفي أو في ذراعي قارصاً أذنيَّ، صافعاً وجهي. إذا ضربني في الشارع غالباً ما يتدخل بعض الناس ويخلصونني منه، لكنه لم يعد يفعل. هكذا فحين يقبضني أسقط على الأرض وأصرخ بجنون. يشطب بي الأرض لحظة رافساً إياي حتّى أفلت منه ثم أجدني بعيداً لاعناً إياه، كارهاً كل الناس، باصقاً على السماء والأرض. ذات يوم كنت مع نشالين في مقهى ندخن الكيف ونشرب الشاي الأخضر. قررنا أن نسرق لنقضي ليلة في البورديل. ذهبنا إلى السوق الجديد. الزحام خانق. فاجأني من الخلف وقبض عليّ من ياقة قميصي. قبل أن اشرع في الحيلة التي تخلصني منه هاجمه رفيقاي. ضرباه باللكم ونطحات الرأس. سمعته يصرخ ويئن ويستغيث. رأيته يغطي وجهه بيديه والدم يسيل من بين أصابعه بغزارة. وقفت بعيداً أنتظر نهاية المشهد. تمنيت لو أني أشاركهما في ضربه. لو كان في مكان خال من الناس لشاركتهما. كان عزاء لي أن أراه يُضْرَبُ على مرأى مني حتّى يسيل دمه كما أسال دمي كلما ضربني. قال لي عبد السلام الذي لحق بي:

ـ ابن القحبة. ماذا حدث لك مع ذلك الكلب؟

ـ لا شيء، إنه أبي.

ـ أبوك؟

ـ نعم، لكنه يستحق أكثر مما حدث له.

قال السبتاوي الذي وصل:

ـ ولد الزبل. ولد القحبة.

قال لي:



www.ithar.com

ـ ماله معك؟

قال له عبد السلام:

ـ إنه أبوه.

ـ أبوه؟ (أضاف لي): أبوك؟

ـ نعم، أبي. (أضفت): إنه يستحق أكثر مما فعلتماه له. إنه كلب.

عندما بلغنا درب «الطلعة» رأيت رجلاً مخموراً يخرج من دار. كانت ليلة باردة، ماطرة. قال عبد السلام:

ـ المطر سيخفف من هذا البرد.

تخطانا الرجل السكران يترنح. سمعنا ارتطاما على الأرض. قال السبتاوي:

ـ إنه جد سكران. لا بد أنه قضى اليوم كله يسكر هنا. أنا أكره السكر في النهار.

نهض الرجل السكران بصعوبة. دخلنا نفس الدار التي خرج منها. استقبلتنا امرأة أنفاسها مخمورة. جسمها رشيق، لكن وجهها متعب. لابسة قفطانا من المخمل أسود. أمسكتْ وجه عبد السلام بين يديها بحنان ورقة وباسته في فمه: قبلة مسموعة. قالت له:

ـ ماذا حملت لي معك اليوم؟ ماذا حملت لأمك؟

إنها أمه إذن. أمه تبوسه في فمه هكذا كأنه عشيق صغير. قال لها عبد السلام:

ـ كل شيء. كل ما تريدينه سأتيك به ما دمت حيا.



ثم أعطاها سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب. فحصت الصليب وقالت:

ـ هذا سأخلعه لأرميه أو أذوبه عند الصائغ لأجعل منه «خميسة».

رأيت السبتاوي يتجه إلى حجرة مضاءة. أصوات رجال ونساء وضحكات. قدمني عبد السلام إلى أمه المخمورة:

ـ ماما، هذا صديق جديد. محمد. (فحصتني بعينيها الناعستين). سيسهر معنا هذه الليلة.

احتضنت وجهي برفق بين يديها وقبلتني في شفتي. قبلة متمهلة ذات رنين. استعذبت أنفاسها المخمورة المزيجة بعطر قوي.

ـ مرحباً بك عندنا.

تأملتني لحظة ماسكة وجهي بين يديها مبتعدة قليلاً إلى الوراء. عيناها ناعستان مشرقتان نديَّتان. أمالت رأسها قليلاً إلى الوراء. أكاد أرى وجهي في عينيها الدامعتين. ماذا تريد مني هذه المرأة؟ أهي تسحرني؟ اضطربتُ. عيناها جميلتان. عبد السلام ينظر إلى أمه مبتسماً. أهي حقيقة أمه أم هي لعبة؟ ربما تكون تبنته. قالت لنا:

ـ اطلعوا إلى الغرفة كلكم. سيأتيكم كل ما تريدونه.

صعدت مع السبتاوي إلى الطابق العلوي وتركنا عبد السلام يتفاهم معها حول سهرتنا.

حملت إلينا فتاة، في حوالي العاشرة، صينية وزجاجة كونياك تَرّي. قال السبتاوي:

ـ ليس أحسن من الكونياك في هذا اليوم البارد.



www.ithar.com

قلت له:

ـ وهاضم.

كنا قد أكلنا طعاماً دسماً. محفظة النقود التي سرقها السبتاوي كانت تحتوي على ثلاثة آلاف بسيطة. قال:

ـ عبد السلام يتفاهم مع أمه لجلْب ثلاث فتيات جميلات من خارج الدار. هناك فتيات كثيرات لا يقحبن علانية. يقبعن في منازلهن رهن طلب القوادات. بعضهن متزوجات. قد تجد بينهن من هي عذراء.

ـ وهل يمكن نكاح عذراء؟

ـ إنها تسهر مع الجماعة، وفي نهاية السهرة ترسل معها القوادة من يصحبها إلى دارها أو تنام معها حتّى الصباح.

ـ وإذا أراد الواحد أن يفتض فتاة عذراء!

ـ في هذه الحالة ينبغي دفع ثمن افتضاضها.

ـ كم، مثلاً؟ (نظر إلي بتعجب). أضفت:

ـ إنني أسأل فقط.

ـ هلا تريد أن تفتض واحدة؟

ـ إذا كان ممكناً ذلك فلماذا لا!

ـ إنها تكلف ألف بسيطة أو ألفاً وخمسمائة بسيطة.

ـ أليس عند أم عبد السلام هنا فتيات؟ لقد سمعت أصواتهن في الحجرة التي دخلتها أنت.

ـ عندها هنا فتاتان مُحترفَتان، جميلتان، لكننا شبعنا منهما أنا وعبد



السلام، هذه الليلة ليس هناك سوَى فتاة جديدة تشرب الكونياك لتسكن ألم ضرس.

سمعنا أصواتاً رقيقة ضاحكة. قال السبتاوي:

ـ ها هن طالعات.

أطلت علينا أم عبد السلام باسمة ثم ظهرت خلفها ثلاث فتيات لابسات القفاطين. إنه عرس، عرس حقيقي. ملأت أم عبد السلام كأساً لنفسها وانصرفت به. دخل عبد السلام حاملاً في يده كرتوشة سجائر فرجينيا. جلست كل واحدة إلى جانب كل واحد منا دون اختيار.

لم أخرج خلال ثلاثة أيام. ينصرفن في الصباح إلى الحمام. في المساء يعدن نظيفات، معطرات، مكحلات ومسوكات. السبتاوي وعبد السلام يخرجان معاً وأفضل أنا البقاء نائماً أو حالماً في يقظة بذكرياتي في طنجة وتطوان ووهران. في الليل يصير للحياة طعم الخلود.

لم أنفق سوى ثلاثمائة بسيطة. أحياناً تأتيني عزيزة، أم عبد السلام، لتحدثني عن حياتها وتشرب وتدخن سجائر شقراء. احياناً تدخن الكيف. في المساء الرابع لم يعد عبد السلام والسبتاوي. طلبت مني أن أخرج لكي أفتش عنهما. دخت وعرقت عندما خرجت من الدار. بعد ساعتين عدت. أخذت تنتحب متسائلة:

ـ لا بد أن يكون رجال الشرطة قد قبضوهما؟

لم أعرف كيف أجعلها تطمئن. بين حين وآخر أردد برتابة:

ـ أتمنّى ألا يكونوا قد قبضوهما.

ظلت تتردد عليّ حتّى الواحدة صباحاً حاملة في كل مرة كأساً ملأى



www.ithar.com

بالكونياك. تارة تنتحب وتارة تضحك.

قالت:

ـ هناك في الأسفل فتاة ستنام وحدها هذه الليلة. هل تريد أن تنام معك؟ لا تدفع لها شيئاً. أنا سأتفاهم معها.

ابتسمت لها. شربت كأسها دفعة واحدة. نهضت. انحنت علي. أمسكت ذقني في يدها وباست فمي بلذة. قالت:

ـ إنك تذكرني بأخي «سلاّم».

لأول مرة أرَى امرأة سكرانة.

خطت خطوات خارج الغرفة ونادت على الفتاة:

ـ ياسمينة، اطلعي!

سمعتها تتهامسان قرب الباب. لا بد أنها توصيها بي. دخلت الفتاة، خجولاً، لابسة قفطاناً. رائحة عطرها قوية. قالت:

ـ ما زال البرد شديداً رغم الأمطار الغزيرة التي سقطت.

صببت لها الكونياك بالليمونادا. أخذت ترشف من الكأس رشفات صغيرة. لم نتكلم كثيراً. خفف حضورها مللي. أمسكت يدها في يدي. قالت لها عيناي وبسمتي:

ـ أنا لا أفهم كثيراً من الأشياء. وأنت يا ياسمينة؟

قالت عيناها وبسمتها:

ـ أنا كذلك لا أفهم كثيراً من الأشياء في هذا العالم.

نظرت إلى المصباح. لا بد أن نطفىء الضوء حتّى لا نظل هكذا مثل أخوين.



## ٦

صالحني الجيران مع أبي. بدأت أساعد أمي في الدكان بانتظام. حتم عليّ أبي ألا أخرج للسهر في المقهَى. إنه عذاب لا يحتمل ألا أخرج في الليل. إن الليل هو كل ما أملك ما دمت أقضي النهار في الدكان مع أمي.

ذات صباح، وقف أمام الدكان شرطيان سريان: مغربي واسباني. قال لي الشرطي المغربي:

ـ تعال معنا.

فكرت في عبد السلام والسبتاوي. رجوت من ابن بائعة النعنع قبالة دكاننا أن يبقَى لي في الدكان حتّى أعود أنا أو أمي من مخازن الخضر. قادني إلى مركز الأمن. قال لي الشرطي المغربي في المخفر:

ـ أين هو عبد السلام والسبتاوي؟

ـ لا أعرفهما.

ـ كيف لا تعرفهما!

ـ لا أعرفهما.

صفعني مرتين وشدني من قميصي على صدري:



www.ithar.com

ـ اسمع، إذا لم تقل لنا الحقيقة سنقلب لك وجهك إلى الوراء. أتفهم أم لا؟

أطل الشرطي الإسباني من مكتب وقال:

ـ ادخله.

عندما دخلت تطلع إليّ الضابط وقال:

ـ أهاه! أنت هو إذن.

كنت أعطي لابنه خوليو، في عين خباز، العصافير التي تخنقها مصايدي، لأني كنت أعتبرها جيفة. كانت زوجته تسخرني عند البقال وأصحبها أحياناً إلى السوق لأحمل لها السخرة.

ـ أين تسكن أسرتك الآن؟

ـ في حي الطرانكات.

ـ هل ما زالت أمك تبيع الخضر؟

ـ نعم.

ـ وأنت، ماذا تعمل؟

ـ أساعدها في الدكان.

ـ لكنك أيضاً تصاحب بعض النشالين وتسرق معهم.

ـ أبداً.

ـ ألا تعرف عبد السلام والسبتاوي؟

ـ أراهما في قهوة الطرانكات. لكني لا أصاحبهما.



ـ ألا تعرف أين يمكن أن يكونا الآن؟

ـ لا أعرف.

ـ منذ كم لم ترهما؟

ـ منذ أكثر من أسبوع.

ـ آي يايايا!

بعد لحظة قال:

ـ طيب، يمكن لك أن تنصرف، لكن إحذر أن يقبضوا عليك يوماً ما مع اللصوص.

شكرته وخرجت. خارج المخفر بدأت أبصق بين الحين والآخر نجمات من الدم الذي كنت أبلعه وأنا أجيب الضابط «ألڤا» (Alva) كما كنا نسميه في عين خباز.

في المساء وجدني صديقي التفرسيتي في مقهى الطرانكات أدخن الكيف مهموماً. فاحت منه رائحة النشوة. ألح عليّ أن أصحبه إلى سهرة سيقيمها أخوه الأكبر في أحد بساتين «كيتان» عند صديق له. اشترى التفرسيتي زجاجتين من نبيذ مالقة الحلو. ذكر لي أنه حضر عدة مرات مثل هذه السهرة التي سنذهب إليها. يقيمونها مرة كل سبت في ذلك البستان.

ـ حينما يسكرون ينهضون إحدى الفتيات لترقص لهم عريانة.

تعجبت:

ـ ترقص عارية تماماً؟

ـ وأكثر من هذا.



www.ithar.com

ـ ماذا أكثر؟

ـ اترك ذلك حتّى تراه بنفسك.

ركبنا سيارة أجرة. كان التفرسيتي قد أصبح له رأسمال. يبيع الخضر والفواكه لحسابه. ذكر لي، في زهو، أنه يسكن مستقلاً عن أبويه وله عشيقة جميلة طلقت بعد ثلاثة أشهر من زواجها.

نزلنا. سألته عن موقع البستان. قال:

ـ بعد دقائق سنصل.

الليلة قمراء والجو دافىء.

ـ إنها تحبني. تستطيع أن تقتل نفسها إذا طلبت منها ذلك. أحياناً أضربها حتّى أدميها. تذهب غاضبة فأقول لنفسي: هذه آخر مرة. إنها لن تعود، لكنها تعود بعد يوم أو يومين.

ـ وهل تحبها أنت؟

ـ أووه، لا أدري. لقد آلفتها. إذا كانت الالفة هي الحب فإني أحبها.

ـ لماذا تضربها إذن؟

توقفنا. فتح زجاجة وشربنا منها بالتناوب بعض الجرعات.

ـ أعتقد أنها تجد لذتها عندما أضربها. إنها تشاكسني. تفعل ما أنهيها عنه.

فكرت: لقد أصبح التفرسيتي يتصرف كرجل مع المرأة. قلت له:

ـ إنك محظوظ.



ـ لماذا؟

ـ لأنك لك امرأة تأتيك متَى تشاء وتضربها متَى تشاء.

ابتسم وقال مزهواً:

ـ أنت أيضاً ستكون لك امرأة.

ـ ربما.

ـ أنا أضمنها لك.

فكرت: التفرسيتي صار يضمن لنفسه ولغيره. «بالمال يستطيع الإنسان أن ينكح العالم». هذا ما قاله حشاش في مقهَى الطرانكات.

اقتربنا من المكان. سمعنا موالاً وتوقيعات على المندولينا. قال:

ـ لقد بدأوا.

توقفنا قدام باب من الخشب. دفعه فتراءت لنا أضواء فوانيس. سمعنا صوتاً:

ـ من هناك؟

رد عليه التفرسيتي:

ـ أخو التفرسيتي.

صوت جميل لشاب يموّل:

يــالــيــل طُــلْ أو لا تَــطُــلْ لابُــدَّ لي أن أســهــرَكْ
لــو بــاتَ عــنــدي قــمــري مــابِــتُّ أرْعَــى قــمــرَكْ

رجال ونساء، جالسين تحت شجرة. البستان يعبق بروائح الزهور. رائحة مسك الليل قوية. قلت لنفسي: «هذه جنة». الأرض مفروشة



www.ithar.com

بالزرابي والوسائد. رحب بنا أخو التفرسيتي. أعطيناه الزجاجتين. قال:

ـ نبيذ موسكاطيل. عظيم.

جلسنا. كنا نحن الإثنين أصغرهم. كانوا قد شربوا. همس شاب في أذن فتاة. قامت واختفت بعيداً عنا. امرأة في حوالي الثلاثين تصب الخمر. بدأ عازف المندولينا لحن الرقصة يصاحبه شاب بالدربوكة وفتاة بالدف. صاح صوت الشاب الذي كان قد همس في أذن الفتاة:

ـ أنيسة! أنيسة! أنيسة!

تعالت أصوات بنفس الاسم. جاءت أنيسة في مشية راقصة. ترقص وتوزع علينا بسماتها. لم تكن تلبس سوى غلالة شفافة بلا رافعة للصدر. إن الشيطان يرقص الآن في جسدها. شيطان سكران. همس في أذني التفرسيتي:

ـ هل سبق لك أن شاهدت من قبل مثل هذا المنظر؟

ـ أبداً. حتّى في السينما لم أشاهد فتاة ترقص ونهداها شبه عاريين مثل هذه.

ـ ها أنت ترى. أتمنّى أن يفعلوا لها مثلما فعلوا لها في إحدى هذه السهرات. لقد أجلسوها عريانة في جفنة كبيرة وصبوا عليها غرافتين من النبيذ الاسباني ثم راحوا يملأون كؤوسهم ويشربون.

كلمات الصنعة الأندلسية تقول:

يا ليلة حزتِ الجمالْ ... والسعدُ أقبَلْ
لَكِ المفاخر والكمال ... والعزُّ أجمل



بلغتُ قصدي والآمال ... في البدر الأكمل
جاد بانشراح وقْتُنَا ... والبعد ممنوع
الفرح أقبل والهنا ... والشمل مجموع



www.ithar.com

## ٧

صرت أفكر: إذا كان من تمنيت لـه أن يموت قبـل الأوان فهو أبي. أكره أيضاً الناس الذين يشبهون أبي. في الخيال لا أذكر كم مرة قتلتـه! لم يبق لي إلا أن أقتله في الواقع.

رفضت عشاء أشتهيه. السينما تناديني. فيهـا أنسَى همومي. سـآكل الدجاج بالجلبانة في خيالي. يدي ترتعش حين أمزق شريحة لحم أمامه. لماذا يحدجني بسخط؟ آكل بحذر مثل قط. أناهُ حاضرة حتّى في غيابه. ارادتـه هي اختيارنـا. لهذا السبب أفضـل أكـل حصتي عـلى انفـراد. ينبغي لك ألا تتناول طعـامك وحـدك. إنها عادة سيئـة. «ليست أسوأ من حضور أبي» هكذا أجيبها في خيالي.

أبي أقـرب منا إلى الإلـه وأقرب إلى الأنبيـاء والقديسـين. كثيـراً مـا تمنيت لو أنني أتصور طعاماً فأشبع. لقد جعلني أرتاب في كل ما يقـدم لي من طعام وأشياء أخرى.

ـ أبوك لن يتغدى معنا اليوم. أجلس إذن على المائدة وكل.

ـ لا أريد.

ـ أجلس وكل أَقُلْ لك.

أصرخ:

- كلا. هل تفهمين؟

- لماذا؟

- تعشيت دجاجاً بالبصل والزبيب واللوز.

- أين؟

وضعت سبابتي على جبهتي:

- هنا.

- إنك مجنون. احذر أن يدخل ويجدك تأكل وحدك.

حبي لها يمتزج بكراهيتي لأبي.

دخل. ها هو الآن قد حضر كوجبة الكرشة التي أشمئز منها منذ أن مات خالي ورأيت الناس يأكلونها بعد الجنازة.

- لماذا لا تأكل؟

- شبعان.

- كذاب. أنت لا تشبع. لا أريد أن تشبع كما تريد أنت.

- احلف أني الآن شبعان.

- أنا أعرفك جيداً يا ابن هذه القحبة.

- يعرفني الناس إذا كنت قحبة.

صفعها. صرخ في وجه أمي وأختي:

- توقفا أنتما عن الأكل وإلاَّ سأجعلكما تأكلان الخرق.

قال لي:



- وحدك ستأكل كل هذا الطعام. (وحدك. ستأكل كل شيء. وحده، وحده، وحده. . .)

قلت حتَّى لا يبدأ في ضربي:

- نعم، نعم.

- ابدأ إذن.

اعترضت أمي:

- هل جننت؟ ستقتله.

- فليمت وبعده أنت.

تتوسل إليه وهو واقف ونحن جالسون. بدا لي مثل عملاق يتحكم في الأقزام. نحن كنا أغنامه. يستطيع أن يبدأ بذبح من يشاء. أختي ارحيمو منكمشة على نفسها وأمي تبكي.

- بعد اليوم لن تعاف ما يُقَدَّمُ لك من طعام. صفعني. هدهدتُ بلساني باطن شفتي السفلَى. انسلاخ مؤلم.

- حتَّى الجيفة لن تعافها بعد اليوم.

فمي يمتلىء بمسيل دام دافىء، مالح وحلو. أحسُّ بتفاعلٍ يُوَسعُ معدتي. بدأت آكل. كراهيتنا تتعمق. لو كنت أقوى منه لجعلته يأكل الحلفاء.

أفقتُ في المستشفَى المدني. أتنفس ببطء. غسلوا لي معدتي وأنا في غيبوبة. المغصُّ يمزق معدتي.

صوته:



www.ithar.com

- أين هو ؟

- نائم.

- سيتعشّى معنا.

- أنه متعب. اشتغل معي كثيراً في الدكان.

تضلله. هذا ما لا يجعلني أكرهها كما أكرهه أو أتمنّى موتها كما أتمنّى له.

سمعته يتكلم وحده. لم أستطع أن أتراجع. لقد أحسّ بدخولي. وجدته جالساً وحده. سحنته شرسة. تجعدتْ أساريره حين رآني. الغائبون حاضرون أيضاً في حضوره. يلعننا حاضرين وغائبين. يستحضرنا وقتما يشاء هو. أنه كالإله. من أعطاه هذه القوة؟

- أين أمك ؟

- تشتري السلعة من المخازن.

- من تركت في الدكان ؟

- ارحيمو.

- وأنت ؟

- لم ترد أمي أن أصحبها إلى المخازن.

- وتجيء الآن الى الدار لتأكل.

- أبداً.

- وإذن؟ أنا أعرفك. تحسبني ذهبت إلى ساحة «الفدان». إنك لست إلاّ ولد قحبة. ألا أقول الحق؟ تأمل جيداً وجهي. (أنا



خافض رأسي). كأنني لم ألدك. ربما نام مع أمك رجل آخر. يثق الإنسان في الشيطان ولا يثق في النساء. أرى أنك لا تشبهني في شيء. ربما تشبهها هي. أولادُ القحاب يشبهون أمهاتهم. إنها دائماً تدللك. تتواطآن عليّ. كلاهما يحاول أن يدافع عن الآخر. لا تباليان أبداً بما أقوله. أليس حقاً ما أقوله؟ تكلم أيها الملعون. أعرف أنك تكرهني. تتمنّى لو أني أموت. (فكرت: ها أنت بدأت تقول شيئاً معقولاً). تحبها. لا تحب إلاّها. (فكرت: هي لا أكرهها. أما أنت فمن يحبك في هذا العالم؟) أرى هذا الحب في عينيكما معاً. تدللك كما لو أنك مازلت ترضع منها. حليبها لا يزال بين أضراسك. هي أمك. لكني أنا أبوك. إذا كان هناك من يجب أن تطيعه فهو أنا. لا أحد إلا أنا. الطاعة لي وحدي ما دمت حياً. أتسمعني؟ (أسمعك يا خليفة الله في أرضه التي يحكمها آباء مثلك). لكن الكلام معك لا يجدي في شيء. تعتبرني غائباً حتّى حين أكون حاضراً. أتسمعني أيها المسخوط؟ (أسمعك يا ولي الله). أنك لست إلا عضاض ثدي أمك.

ظللت ماثلاً أمامه كما يريد لي هو أن أكون.

- ماذا جئت تفعل هنا بالضبط؟

- أمي أرسلتني.

- لماذا ؟

- لأنظف الغرفة.

- إنك تذكرني بجميع الكذابين. إنها لا تتركك في الدكان لأنك تسرقها وتشاكسها. لا تصحبك معها إلى المخازن لأنك تأكل هناك متاع الناس. الباعة والحمالون يقولون لي عنك كل شيء. تحشو



www.ithar.com

جيوبك بالفاكهة. ما زلت أفكر كيف ينبغي لي أن أتخلص منك. (وأنا أيضاً أيها الأحمق..) أني أكرهك. (وأنا أيضاً أيها المجرم). الآن أخرج إلى الدكان. احرس مع ارحيمو حتّى لا يسرقها الأطفال.

هبطت الدرج أرتعد. لن أتخلف عن الذهاب إلى السينما هذا المساء. «أنه متعب. اشتغل كثيراً معي في الدكان». تضلله. هذا يمنعني من كراهيتها.

صعدت إلى السطح بحذر. إنه الآن صامت. ربما يحشو فمه بلقمة كبيرة. أنه يأكل كوحش.

ألتفت ورائي وأنا أربط الحبل. انبثق شبحه.

- الى أين أنت ذاهب يا ابن الحرام؟ تعال. إلى أين؟

ارتميت بلا تردد على أسلاك الكهرباء الغليظة. سمعته يسب. يتوعدني بيديه المطبقتين على عنقي في الفراغ.

- حدست هذا.

بصيرتي إلى أسفل. دخْتُ. سيخرج من المنزل ويتلقفني. سيعجنني. عقله مريض. تنفستُ بعمق. هويتُ مُغَمِضاً عينيَّ. تكورت فوق الحجارة والزبل. شيء حي خبط تحت رجلي:

- رأسي! من أنت؟ سارق؟ اقبضوه. قف هناك..!

كل ما أدوسه ينزلق تحت قدمي الحافيتين. لا أميز بين البطيخ الأحمر والأصفر والرؤوس إلاّ عندما أسمع صراخاً تحت قدمي. صاح العساس الإسباني الذي جاء قادماً.

- آيه! قف هناك! تعال هنا!

جعلت الشيخ الإسباني يشطح مهدداً إيَّايَ بهراوته.



- أقول لك تعال! اللعنة عليك!

سمعت زعيق صفارة الحارس. شبح أحدهم يركض يائساً في القبض عليَّ. خمسة أو ستة منهم يتابعونني بحركات واشارات.

حمل إليّ السكون دمدماتهم المتلاشية. كففت عن الركض. لكني خشيت أن يعترض طريقي أحدهم من الجهة الأخرى. ربما يكون أبي الملعون بالذات. استأنفت ركضي بأقوى سرعة. فكرت: سأظل أجري حتّى أتهاوى. حتّى أسقط مثل كرة من البلاستيك يثقبها طفل.

في السينما أشعلت سيجارة. أهدهد بيدي بناني الدامية. تخيلت يدي أبي تطبقان عليّ. إنه في خيالي كغريم البطل على الشاشة الآن. أنا البطل. ضغطت على الزناد: طراطا طاط... طرا طاطاطا.. طران. أبي يموت. الرصاص يبرد في قلبه ومخه. الدم يسيل منه كما يسيل دم عدو البطل على الشاشة الآن. أطرافه ترتعش لآخر مرة. مات أبي في خيالي كما مات خصم البطل على الشاشة. هكذا تمنيت دائماً أن أقتله.

بعد خروجي من السينما اتجهت إلى ساحة الفدان. جلست على المقعد الجرانيتي مستعيداً قتل البطل لغريمه. أبي يتمرغ في دمه وأنا أنظر إليه بانتصار. أطفال وشبان وشيوخ نائمون على الأرض وفوق المقاعد كالأسماك الميتة على الشاطىء. حين يصل شخص يختار مكانه ثم ينبطح وينام. معي خمسة وسبعون بسيطة. لففتها جيداً وطمرتها في التراب، قرب ساق وردة خلف المقعد الذي سأنبطح عليه. نمت. حلمت أن أبي يطاردني. أحسست بيد تفتش جيوبي. لم أتحرك. تركت عيني نصف مغمضتين. الشخص أكبر مني. إذا أراد أكثر من تفتيشي



www.ithar.com

فسيكـون لي معه شيء آخـر. انقلبت ببطء على ظهـري لأساعـده على تفتيش كل جيوبي. انصرف. رأيتـه يُحَوِّم حـول نائمـين آخرين. حلمٌ ينتهي في تـطوان وحلم يبدأ في طنجـة. كنت مـا زلت في تـطوان وأنـا أضيع في شوارع طنجة.



## ٨

أفقت مذعوراً. الغلام يهزني من كتفي ويقول لي:

ـ قم! البوليس! البوليس!

اختفت السـتون المتبقية معي من جيبي ونـزعوا لي حـذائي دون أن أفطن. قلت للغلام ونحن نجري:

ـ سرقوني.

ـ كم؟

ـ ستون بسيطة.

ـ يخلفها الله.

خففنا سرعتنا. أضاف:

ـ أنت محظوظ.

كنا نلهث.

ـ ماذا تعني؟

ـ إنهم يغتصبون إذا لم يجدوا ما يسرقون.

قصدنا مقبرة بوعرقية. سألته:



www.ithar.com

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ اتبعني واسكت. لا تخف من شيء.

دخلنا عالم الصمت الأبدي. فكرت: هنا مدفون أخي عبد القادر. حين يموت أبي سأزور قبره لكي أبول عليه. إن قبره لن يصلح إلاَّ لمرحاض.

مشينا فوق القبور. وقفنا قدام مقبرة عائلية مسورة. قفز الرفيق فوق السور. قال:

ـ اقفز، ماذا تنتظر؟

قفزت. أخذ يفرش الأرض بقطع كبيرة من الورق المقوَّى كانت متراكمة في زاوية. قال:

ـ هذا مكانك.

ثم شرع يفرش مكانه. تقرفصتُ وذراعاي على ركبتيَّ. جلس وسألني:

ـ من أين أنت؟

ـ ريفي.

ـ وعائلتك؟

ـ في تطوان.

ـ تسكنون هناك؟

ـ كنا نسكن هنا في طنجة ثم انتقلنا إلى تطوان.

ـ هربت؟



ـ نعم.

ـ حتَّى أنا هربت.

ـ من أين أنت؟

ـ من «جبل حبيبي».

فكرت: هو جبلي إذن.

ـ لماذا هربت؟

يبحث عن شيء في جيوبه.

ـ طردتني زوجة أبي.

ـ وأمك؟

ـ ماتت.

أخرج عقبين. سألني إن كنت أدخن. قبلت العقب. شممته: رائحة تبغ أشقر. أشعل لي. سحبت نفساً عميقاً. سعلت ثم غمرني ارتخاء لذيذ. حلقي ناشف. سألته:

ـ هل تعرف تطوان؟

ـ ليس كثيراً. هربت إلى طنجة بعد أن سكنا في تطوان حوالي شهرين.

ـ ماذا يعمل أبوك؟

ـ حمال. وأبوك أنت؟

ـ لا شيء. كان جندياً في الجيش الإسباني ثم هرب. قبضوه



www.ithar.com

وحكموا عليه بسنتين. من يوم أن خرج من السجن وهو يهش على الذباب في ساحة الفدان.

ـ ومن يعيل أسرتك؟

ـ أمي تبيع الخضر والفواكه في حي الطرانكات.

ـ وأنت، ماذا كنت تعمل؟

ـ أحياناً كنت أساعد أمي في الدكان وأحياناً أحترف أعمالاً أخرى.

ـ ولماذا هربت؟

ـ كان أبي يضربني كثيراً. أحياناً كان يعلقني من رجلي إلى فرع شجرة ويضربني بحزامه العسكري. كنا نسكن في عين خباز في ذلك الوقت.

ـ أنا أيضاً كان يضربني أبي عندما تشكوني إليه زوجته.

ـ وهنا. ماذا تعمل؟

ـ حمّال. أحياناً أسرق.

بعد لحظة قال:

ـ أنا متعب، سأنام.

كانت حوالي الواحدة بعد الزوال عندما هبطت الميناء. كنت حافياً. جد متعب. شربت كوب ماء في أحد مقاهي الميناء. رأيت هناك كشكاً لبيع البيصر. بسيطة واحدة وأشرب فنجان بيصرة. أحسست بوجع قاس في معدتي ماشياً تحت شمس كاوية. جنون الجوع والقيظ يفقداني رؤية الأشياء في وضوح. التقطت سمكة صغيرة جافة



ومُداسة. شممتها. رائحتها مقيئة. سلختها. مضغتها باشمئزاز. طعمها نتن. أمضغها وأمضغها دون أن أقوى على بلعها. حجارة ناتئة تؤلم أخمص قدمي. أمضغ السمكة كعلكة. تفلتها. رائحتها بقيت في فمي. ألوك فراغ فمي. ألوك وألوك. أمعائي تبقبق. تبقبق وتبقبق. دختُ. دختُ وتدفق الماء الأصفر من فمي وأنفي. تنفست بعمق. قلبي يخفق بعنف. بصلة ويزول هذا الدوار. العرق يسيل على وجهي، يسيل ويسيل. فكرت في الرفيق الذي أنقذني ليلة أمس من دورية حملة القبض على المتشردين. لماذا لم يوقظني في الصباح؟ ربما حاول فلم أستيقظ. لم يعرف أحدنا اسم الآخر.

صياد يأكل فطيرة محشوة. آكلها معه في خيالي. يستند على حافة مركب الصيد وأنا متعباً أنظر إليه، أنظر وأنظر إليه لعله يرمي شيئاً وآكل. قرد مربوط إلى صاري المركب يمسك بين يديه شيئاً يحاول بعصبية أن يكسره بأسنانه. تمنيت أن يكون ذلك الصياد يمضغ بلا طعم كما كنت أنا أمضغ سمكتي النتنة. ينظر شارداً إلى مباني طنجة القديمة. قلت له في خيالي: «ارم خبزك كما رميت أنا السمكة النتنة». ناداه رفيق في المركب. رمى الفطيرة إلى الماء ثم ذهب إليه. انبجس طعم الملح لذيذاً في فمي. أحسست بلذة تنعش جسدي الرخو. تعبي يخف. نزعت قميصي وسروالي وقفزت إلى الماء. طفوت تحت قطعة الخبز. ضحك الصياد. رفعت رأسي إليه. قبضت على الشطر وفتته في قبضة يدي. قِطَعُ الخراء تعوم حولي. بقع من زيت المراكب. سبحت نحو السلم الحجري. قطع أخرى من الخراء والخبز تطفو أمامي. اختلط في ذهني الخبز بالخراء. تسرب الماء القذر إلى حلقي. اختنق تنفسي. صعدت درجتين. انزلقت وسقطت في الماء. الماء يتسرب إلى حلقي. صعدت ناشباً أظافري في الصخر حتى دَمِيَ بعضها. عندما



www.ithar.com

بلغت آخر درجة تخيلتني أسقط مرة أخرى. جسمي مدبق بزيت المراكب. في أذني صمم. التقطت قميصي وسروالي وانصرفت. ناداني الصياد. التفت إليه. لوح لي بيده أن أعود. قهقهاته تخفت شيئاً فشيئاً. ناداني:

ـ ايه! يا ولد. تعال هنا. إنه فقط مزاح. تعال. هاك خبزاً آخر.

قال الصياد الآخر فوق المركب:

ـ مسكين الولد، مسكين!

لم ألتفت مرة أخرى إليهما. رأيت في الطريق بعض الأسماك الصغيرة المداسة. سمعت سقوطي في الماء. أظافري دامية. رفعت وجهي نحو السماء. إنها أكثر عراء من الأرض، أكثر عراء.

صفعتني الشمس الحارة. أرتعش من العياء. أرتعش وأرتعش. قط يسترخي في اطمئنان في قعدة ظليلة. يتأملني ناعساً بلا مبالاة. بطنه البيضاء ـ السوداء تعلو وتنخفض ببطء. التقطت سمكة أخرى صغيرة جافة، رائحتها أكثر نِتْناً من السمكة الأولَى. أقيء الماء المالح. أقيء وأقيء حتَّى لم يبقَ إلاَّ صوت القيء، إلا صوته.

قصدت الشاطىء. فارغاً أحسني، رخواً. أتخيل أني سأسقط ولا أستطيع أن أقوم. لكي أنسَى ما حدث رحت أتأمل خطواتي على الرمل تلعقها الأمواج. رميت قميصي وسروالي على الرمل. أخذت أفرك جسمي بطحالب البحر والرمل. أفرك وأفرك. شعر رأسي أكثر تدبقاً من جسمي. ظلت أحك جسمي وأغوص في الماء حتَّى احمر جلدي. ظل جسمي متدبقاً لكن أقل قذارة.

في المساء، بعد تسكع طويل، انبطحت قبالة محطة القطار. فشلت



في حمل حقائب بعض المسافرين. كنت ما أكاد أقترب من أحد المسافرين حتَّى يصرخ في وجهي أحد الحمالين:

ـ ارجع إلى الوراء. امش من هنا. امش يلعن الفرج الذي خرأك. عمرتم لنا هذه المدينة السعيدة مثل الجراد.

شتموني، بصقوا عليّ ودفعوني. شاب أقوى مني ركلني وضربني على قفاي، لكني بقيت هناك عنيداً. مرة واحدة فقط استطعت أن أقنع مسافراً أجنبياً بحمل حقيبته الثقيلة. بينما كنت أحاول حملها هجم عليَّ حمال قوي، شاتماً ودافعاً إياي. حمل الحقيبة وبقيت هناك. اللعنة على الخبز. القط الذي رأيته في مرفأ مستودع الأسماك ربما هو أسعد مني. إنه يستطيع أن يأكل السمك القذر دون أن يتقيأ. سأسرق وأتسول، لكني في السادسة عشرة. السبتاوي كان على حق: «التسول مهنة الأطفال والشيوخ العجزة. عيب أن يتسول شاب قادر على السرقة إذا لم يجد العمل». هكذا قال لي.

جلس على مقربة مني شاب. أخرج علبة سجائر سوداء وسألني:

ـ أتدخن؟

هززت له رأسي وقلت بضعف:

ـ نعم.

انبعثتْ لدي رغبة في أن أُفْنِيَ هذا الجسد الجاف بأي شيء. حلقي ناشف وقلبي يخفق بوهن.

ـ مالك؟ مريض؟

ـ لا.



www.ithar.com

اقترب مني وأخذت منه السيجارة. أشعل وقيدة. قلت له:

ـ شكراً. ليس الآن.

نهض وقال:

ـ انتظرني حتّى أعود.

شممت السيجارة. إذا دخنتها فسأقيء من جديد دون أن يخرج من جوفي شيء. سمعت هدير طائرة، رفعت عيني إلى السماء، الهدير يتلاشى بعيداً دون أن أرى الطائرة. سمعت صوته يقول:

ـ هاك. يبدو أنك جائع.

اللفافة كانت قد سقطت من يدي. غفوت إذن. مدّ لي نصف خبزة محشوة بالسردين المصبر. رأيت في يده زجاجة نبيذ. أخرج من جيبه كأساً صغيراً وملأه. شربه وعمره ثانية. سألني رافعاً الكأس إلى فمه:

ـ من أين أنت؟

ـ من الريف.

شرب كأسه. لحس شفتيه بلذة.

ـ متى جئت إلى طنجة؟

ـ البارحة.

ـ وأين تنام؟

ـ في الشارع. في أي مكان أستطيع النوم فيه.

أكلت بلذة. بعض اللقمات أبلعها دون أن أمضغها. عمر الكأس



ومدها لي. شربت الكأس دفعة واحدة. الأشياء بدأت تستعيد صفاءها في ذهني. دخنت وشربت الكأس الثانية. عندما شربت الكأس الثالثة قال لي:

ـ هل تريد أن تنام في بيتي؟

تطلعت إليه. عيناه ليستا بريئتين. اللعنة على مثل هذا الإحسان!

ـ بارك الله فيك. لي عم يسكن في عين قطيوط. سأفتش عن داره وأنام عنده.

ـ كما تريد.

نفض الكأس ووضعها في جيبه ثم نهض وقال:

ـ إلى اللقاء. اعتن بنفسك.

لم أحقد عليه. لقد أَسْكَتَ عصافير بطني. نهضتُ ومشيت في شارع النخيل. المطاعم غاصة بالناس. رائحة الشواء في الهواء. نسيم المساء ينعشني. الأشياء تصفو أكثر فأكثر في ذهني. الرجال يغازلون مؤخرات النساء الجميلات. توقفت سيارة حذاء الرصيف الذي أمشي عليه. عجوز يشير لي أن أقترب منه. اقتربت من السيارة. فتح الباب وقال بالإسبانية:

ـ اركب!

ركبت إلى جانبه. ماذا يريد مني؟ هذه هي المرة الأولى التي أركب في سيارة فخمة مثل هذه. يقود ببطء. قلت له بالإسبانية:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

قال راسماً بيده حركة دائرية:



www.ithar.com

- جولة، جولة قصيرة.

إنه أيضاً يريد مني شيئاً غير عادي لكن لا خوف منه. أستطيع أن أدافع عن نفسي إذا لم يعجبني ما يريده مني. سألني:

- من طنجة؟

- أنا من تطوان.

كنا نتجه إلى إحدى ضواحي المدينة. إنه «حساس». هذا لا شك فيه. أوقف السيارة في مكان مظلم. في طريق مشجرة. المدينة خلفنا متلألئة.. أشعل ضوء السيارة. ها هي الجولة القصيرة تتوقف هنا. لامس فتحة سروالي بحركة لطيفة. الجولة الحقيقية تبدأ. يفك زرا تلو زر بمهل. أضاء ضوء السقف وانحنى عليه. أنفاسه تدفئه. لحسه ثم أدخل نصفه. أخرجه وأدخله وشيئي يزداد انتصاباً. لم أجرؤ أن أنظر إلى وجهه:

- برافو! برافو! ماتشو! Macho

يلحسه، يمصه، يهيج منبت خصيتي بأصابعه. أحسست بأسنانه وإذا هو عضه من كثرة اللذة! لكي أسرع في القذف تخيلتني أغتصب أسية في تطوان. قذفت في فمه. همهم مثل حيوان بلذة. أخرج منديله ومسح فمه الذي كان يقطر بحليبي. وجهه محتقن. عيناه جاحظتان، شفتاه مرتخيتان.

زررت فتحة سروالي. شبكت ذراعي حول صدري كأن شيئاً لم يحدث. إن النساء كثيرات. لماذا هو الإنسان لوطي؟ هكذا فكرت.

أخرج علبة سجائر ومدَّ لي منها سيجارة. أشعل لي ولنفسه. فتح الراديو. انبعثت موسيقى هادئة، جميلة. ارتخى على مقعده وأخذ ينظر



حالماً من خلال واجهة السيارة. أعجبني الفصل الموسيقي. أنا أيضاً ارتخيت وفكرت في وهران وعملي مع مونيك الجميلة. إنها اليوم مجرد اسم. قد أذكره وقد لا. الفرح والحزن يتصارعان في نفسي. تملكتني رغبة في البكاء. ماذا أفعل مع هذا العجوز الذي مصَّني؟ سأحقد على نفس والناس إذا ظللت هكذا.

في طريق عودتنا لم نتكلم. أعطاني خمسين بسيطة وأنزلني قرب المكان الذي أخذني منه. صافحني قائلاً:

- إلى اللقاء.

يده ملساء. رخوة. شيعته بيدي قائلاً:

- إلى اللقاء.

استنشقت هواء مشحوناً بدخان سيارته. حوالي خمس دقائق يمصون خلالها للواحد شيئه ويعطونه خمسين بسيطة. هل كل من هم مثل هذا العجوز يمصون؟ حرفة جديدة تُضَافُ إلى الحرفتين الأخريين: التسول والسرقة. أخرجتُ ورقة الخمسين بسيطة وفحصتها. أعدتها إلى جيبي. إن شيئي يمكن له أيضاً أن يرتزق ليعينني على العيش. يمكن له أيضاً أن يتلذذ. أذلك العجوز يجد في مص أزباب الناس نفس اللذة التي أجدها أنا في مصِّ صدور النساء؟ ما زال دافئاً ولزجاً يقطر بين فخذي. هكذا يقحب الناس إذن.

في السوق البراني دخلتُ مطعماً صغيراً قذراً. طلبتُ صحناً من السمك المقلي ونصف خبزة بيضاء. قبالتي رجلانِ. يبدو عليهما أنهما يعملان في أشغال البناء. فوق الطاولة الجالس إليها إبريق من الصفيح كان من قبل صفيحة زيت السيارات. نشرب منه ماءً دافئاً ثلاثتنا



www.ithar.com

بالتناوب. تنبعث من داخله رائحة كريهة. حول الطاولتين الأخريين أشخاص آخرون بائسون. كلنا نأكل بصمت. رنين الملاعق والصحون وأدوات الطبخ وصوت المطعمي يأمر الغلام الخادم أن يفعل عملاً ما أو يتركه. أحياناً تسمع تجشآت الذين انتهوا من الأكل تعقبها: «الحمد لله» ممددة الصوت.

دفعت لصاحب المطعم أربع بسيطات وخرجت. تلاشَى عيائي. امرأة جميلة تمرّ وهو ينتصب. أغانٍ مصرية ومغربية تسمع من المقاهي والمطاعم. قرب مقهَى وقف شاب سكير، عاري الصدر، يحدف على الله بصوت صارخ ناظراً إلى السماء. خرج شابان من المقهَى وأحْنَيا له رأسه وصبَّ عليه أحدهما جرة ماءٍ ثم سحباه إلى داخل المقهَى. الشابان أيضاً يترنحان. أيكون الغلام الذي أنقذني أمس في المقبرة الآن؟ إذا لم أجده فهل أستطيع أن أنام هناك وحدي؟ اشتريت من البقال خمس سجائر «فيليب موريس» مفردة. حينما اقتربت من مدخل المقبرة فكرت: أن المقبرة هي المكان الوحيد الذي يمكن للواحد أن يدخل من بابه في أية ساعة يشاء، نهاراً أو ليلاً، دون أن يطلب من أحد اذناً بالدخول. معهم الحق، لماذا الحارس؟ ليس فيها أية ثروة. أن الموتَى لا يتاجرون، لا يخافون، لا يحزنون ولا يتخاصمون، كل ميت في مكانه. حين يتهدم قبره يدفنون مكانه ميتاً آخر. إذا كان العالم قديماً فإن الأرض كلها قبور.

فِطَعُ الكرتون ما زالت متراكمة في مكانها. هل قبضوه؟ فرشتُ مكاني. ربما يجيء. أشعلت سيجارة. فتلت ثلاث وقيدات وأدنيتها من الشاهد الرخامي. استطعت أن أفهم من الأرقام أن الميت (لم أعرف أهو رجل أم امرأة؟) قد عاش ٥١ عاماً. هناك أيضاً نجمة سداسية.



نجمة يهودية على قبر مسلم يا للغرابة! ما معنَى أن يعيش الانسان ثم يموت؟ قبور يُعْنَوْنَ بها وأنا فوقها. ألهذا معنَى؟ عضوي التناسلي يُبَاعُ بخمسين بسيطة. ما معنَى هذا؟ الأسئلة كثيرة، لكني لا أفهم معناها بوضوح. كل ما أعرفه هو أن الحياة يجب أن أحياها. دخنت العقب بلذة ثم أطفأته ونمت.

استيقظت باكراً. غلام جديد ينام في مكان ذلك الغلام الذي أنقذني من حملة المتشردين. تحسست ما تبقَّى معي من الخمسين بسيطة في جيبي. ما زالتْ بقية البسيطات في مكانها. كان على حق ذلك الغلام: «ليس هناك مكان أكثر أماناً من المقبرة». أعتقد أن الناس يحترمون أنفسهم أمواتاً أكثر مما يحترمون أنفسهم أحياء.

اشتريت من باب الفحص نَعْلاً مطاطياً بخمس عشرة بسيطة. قدماي قذرتان ومتعبتان. تناولت افطاري في مقهَى شعبي تفوح منه رائحة الكيف ومأكولات الصباح. دخنت اللفة الأولَى بلذة. غالباً ما تذكرني سيجارة الصباح بتلك التي دخنتها لأول مرة. يوم جديد مع قليل من اليأس وكثير من الأحلام. سأسرق في السوق كما فعلت مع السبتاوي وعبد السلام. سأحاول قبل أن ينفذ ما بقي لي من النقود.

دخلت السوق. امرأة أجنبية تدفع ثمن مشترياتها ثم تعيد محفظة نقودها الصغيرة المحشوة بالأوراق المالية إلي حقيبتها. انتبهتْ إلى نظرتي نحو حقيبة يدها. شدتها بحرص. قالت لي نظرتها اللطيفة: ألا تحشم؟ خجلتُ وخرجتُ من السوق. أنه بؤس العالم يا سيدة العالم. أن الذين يملكون هم أيضاً لا يحشمون. أنهم يشترونا بأبخس الأثمان. ربما أنت لا تحتاجين أن تبيعي نفسك.

قضيتُ النهار كله تبتلعني وتتقيئوني الدروب. كانت أجساد النساء



www.ithar.com

التي رأيتها قد هيجتني بجنون. دخلتُ مرحاضاً عمومياً واستمنيت على إحدى المؤخرات التي بقيت منطبعة بتشكيلها الجميل في ذهني أكثر من الأخرى. في المساء اكتشفت أنه يمكن لي أن أنام في «فندق الشجرة». بسيطة واحدة يدفعها الداخل ثم ينام حيث يشاء. الاصطبل الكبير تغطيه سقيفة من الأسمنت ينام فوقها الناس وتحتها الدواب. مقهى، مطعم، حوانيت، بيوت صغيرة للايجار، بغايا، دكاكين خضر وفواكه، اصطبل يشبه مدينة صغيرة. صاعداً الدرج إلى السقيفة اصطدمت بسكير. امتدت يده إلى وجهي ملاطفاً وقال:

ـ آ، الغزال! فأين ماشي أهذَا الغزال؟

أبعدتُ يده بعنف. قفزتُ درجتين صاعداً بخوف. أَطْلَقَ قهقهات:

ـ كتضرب ياك العايلْ! كتنفر! (يمسك في يده زجاجة نبيذ خاوية). استنني. غادي نمشي نعمر هاد القريعة ونرجع دابا. عندك تمشي.

هبط مقهقهاً وصعدت خائفاً. سمعته يقول:

ـ جابك الله هاد الليلة. يا لطيف! أنا راجع دابا. والله ما تفلت من يدي هاد الليلة.

عشرات الأشخاص منبطحون وجالسون فوق أرض السقيفة. أكثرهم ينامون. يشربون، يدخنون الكيف، يثرثرون ويغنون. سكير يضم إليه غلاماً ثملاً، يبوسه على خده. قال له أحدهم:

ـ ماشي دابا. خلي العايل عليك. من بعد، من بعد أعمل معه اللي بغيتي. هذي هي البسالة. أتقول عمرك ماشفت العواول.

لن أنام هنا. أفضل النوم في المقبرة على أن أنام في هذا البورديل.



حينما استدرت لكي أهبط سمعت شخصاً يناديني.

ـ أيه! أديك الغزال. زيارتنا بركة. أجي تشرب شي كاس معنا، أجي، آش عائدك؟ ماغاديشي ناكلوك.

قلبي يخفق بعنف. يجب أن أشتري سكيناً أو عدة شفرات حلاقة. هبطت الدرج في الظلام الخفيف مسرعاً. توقفت أمام اصطبل الحيوانات. أتجهت إلى ركن وجلست مسنداً يدي على ركبتي متقرفصاً. دخنت واحدة وحلمتُ قليلاً. هل تعمد الله أن يخلق هذا العالم على هذا الشكل من الفوضَى والتنوع؟ رائحة الحيوانات كريهة. على بعد خطوات من مكاني فرس واقفة. شبكت ذراعي فوق ركبتي ونعست. نمت جالساً خائفاً من أن يغتصبوني. أحسست برشاش حارٍ كريه الرائحة يسقيني. أنتفضت برعب. شتمت العالم. الفرس تكمش فرجها وتفتحه وتتحرك إلى الوراء. نهضت بسرعة وابتعدت عن المكان.

عند الباب سألني البواب:

ـ هل ستعود؟

قلت له بصوت غاضب:

ـ كلا، لن أعود إلى هذا المكان القذر.

ـ مالك؟ هل فعلوا لك شيئاً؟

ـ بالت عليّ فرس.

ـ لماذا نمت بين كوارعها؟ لماذا لم تنم على سطح السقيفة؟ امشِ إلى الحمام. لا تنم قبل أن تغتسل حتّى لا تمرض.



www.ithar.com

قلت له:

ـ انصح نفسك.

اقفل الباب من خلفي بصخب. الجو دافىء. الطرق خالية. هل اذهب إلى الحمام كمال قال؟ وثيابي؟ بَوْلُ الفرس تسرب إلى كل جسمي. بدأت أحك جسمي. قرب باب المقبرة اليهودية القديمة رأيت ثلاثة مشردين سكارى يشربون ويغنون. ناداني أحدهم:

ـ آجي! فين ماشي؟

التفت بسرعة خلفي.

ـ آجي أذاك اغزال؟ آجي عندنا تجلس معنا! ما تخاف شي!

نهض مترنحاً قصدني. قال له أحد رفيقيه:

ـ اتركه عنك. لسنا في حاجة الآن إلى أولاد.

ركضت نحو السوق البراني. التفت فرأيت السكير يعود إلى رفاقه.

اشتريت صابونة من السوق الداخلي. كان عامراً بالسكارى والبغايا واللوطيين والشحاذين. في طريق البحرية، قرب الجامع الكبير، أوقفني شرطيان مغربيان باللباس الرسمي. قال لي الأول:

ـ أوراقك.

ـ ليس عندي أوراق.

ـ من أين أنت؟

ـ من تطوان.

سألني الثاني:



ـ أين تسكن في تطوان؟

ـ في حي الطرانكات.

ـ في الطرانكات بالذات؟

ـ نعم، وراء حمام اليهودي.

ـ هل تعرف مولاي علي؟

ـ نعم، أنه جارنا، يبيع الخضر قدام دكاننا.

ـ وماذا تعمل أنت هنا؟

ـ لا شيء. جئت أبحث عن عمل.

ـ وأين أنت ذاهب الآن؟

ـ كنت نائماً في فندق الشجرة وبالت عليّ فرس.

ـ فرس؟

ـ نعم، فرس: كنت نائماً في اصطبل الحيوانات وبالت عليّ فرس.

تبادلا نظرة وقال لي الثاني:

ـ هل تعرف دار الدباغ؟

ـ لا أعرفها.

ـ آجي معنا.

عند المنعطف نعت لي دار الدباغ وقال:

ـ ادخل هناك. ستجد عينا ماؤها دافىء، اغتسل جيداً وفي الصباح اغسل ثيابك.



www.ithar.com

بعد اغتسالي صوبنت سروالي وقميصي عافساً عليهما بقدمي. من المقهَى تسمع أصوات تحتج على الغش في لعب الأوراق. خرج رجل من المقهى يترنح وقال لي:

ـ ماذا تفعل؟ هل أنت أحمق؟ ليس حسناً غسل الثياب في الليل. أنه فأل سيء.

أنفاسه جد مخمورة. توقفت عن العفس وقلت له:

ـ بالت عليّ فرس في فندق الشجرة.

ـ فرس؟

ـ نعم.

ـ هم م م . . . ! اغسل اذن نفسك وثيابك حتّى لا تمرض. أن الماء يزيل حتّى الجذام.

عندما انتهيت حرت في تجفيف السروال والقميص. عصرتهما ولبستهما وخرجت.

قرب محطة القطار أخذت أتمشّى ذهاباً وإياباً لعل ثيابي تنشف قليلاً. أنام في إحدى عربات القطار القديمة غير المستعملة أم أذهب إلى الشاطىء؟ فوق الرمل لن يسألني أحد، لكن في عربة القطار قد يقبض عليّ الحارس الليلي. تذكرت ما قاله ذلك الغلام: «أنهم يغتصبون الواحد إذا لم يجدوا ما يسرقون له». كان في جيبي أكثر من عشرين بسيطة. لكن قد يسرقون ويغتصبون سواء على عربة القطار أو على رمال الشاطىء. يمكن لهم حتّى أن يذبحوا ضحيتهم. ربما عربة القطار أسلم. قفزت فوق الحاجز. الأحجار الناتئة تؤلم أخمص قدمي. خشيت أن يتمزق قاع نعلي المطاطي ـ القماشي. سرت بحذر وبطء.



قفزت إلى عربة البضائع. أشعلت وقيدة. وإذا اعتدى أحد عليّ؟ نزلت إلى الأرض واخترت حجرين حادين. حين صعدت في المرة الثانية سمعت حفيف تمزق في سروالي. بصقت شاتماً العالم. استلقيت. وضعت حجراً في قبضتي وتركت الآخر قرب رأسي. لا بد لي من شراء سكين. سكين أو شفرات الحلاقة. يجب أيضاً أن أعثر، في هذه المدينة ـ المتاهة، على مفلس مثلي. ماذا يكون قد حدث لذلك الغلام الذي أنقذني من حملة التفتيش على المتشردين؟



www.ithar.com